

المدرسة البغدادية عند المعاصرين

د. محمد عطاء موعد

يسهل على أي دارس لتاريخ النحو العربي أن يستخرج هاتيك المعالم الواضحة لكل من مدرستي البصرة والكوفة من حيث الأصول والمنهج والمصطلحات .

فهل كان هناك مدرسة بغدادية لها مثل ما للمدرستين من أصول أو منهج مستقل أو مصطلحات خاصة بها ؟
وهل عُرف عن مدرسة بغداد - أن صحت التسمية - أعلام اشتهروا ، فنافحوا عن أصول مدرستهم ، ودافعوا عن منهجها ؟
إن عدداً من الباحثين المعاصرين تحدثوا عن وجود مدرسة بغدادية ، فجعلوا بعض النحاة ينضون تحت لوائها .

فقد صنف الدكتور محمود حسني محمود كتاباً سمّاه (المدرسة البغدادية في تاريخ النحو العربي) ، على حين أن الأستاذ الدكتور شوقي ضيف عقد فصلاً خاصاً لهذه المدرسة في مصنفه المشهور : (المدارس النحوية) ، فذكر أن « نحاة بغداد في القرن الرابع الهجري اتبعوا نهجاً جديداً في دراساتهم ومصنفاتهم النحوية ، يقوم على الانتخاب من آراء المدرستين البصرية والكوفية جميعاً ، وكان من أهم ما هيا لهذا الاتجاه الجديد أن أوائل هؤلاء النحاة تلمذوا للمبرد وثعلب ، وبذلك نشأ جيل من النحاة يحمل آراء مدرستيهما ، ويعنى بالتعمق في مصنفات أصحابهما ، والنفوذ من خلال ذلك إلى كثير من الآراء النحوية الجديدة .

وكان من هذا الجيل مَنْ يغلب عليه الميل إلى الآراء الكوفية ، ومن يغلب عليه الميل إلى الآراء البصرية » (١) .

وهذا دفع الدكتور مهدي المخزومي إلى الحكم على المذهب البغدادي بقوله : « فليس المذهب البغدادي إذن إلاّ مذهباً انتخابياً ، فيه الخصائص المنهجية للمدرستين جميعاً ، على نحو ما فعل ابن مالك في محاولته الجمع بين المذهبين ، وانتهاجه منهجاً وسطاً بينهما » (٢) .

أما الأستاذ Howell فقد تكلم على المدرسة البغدادية فقال: « إن مدرستي البصرة والكوفة ظلتا منفصلتين حتى نهاية القرن الثالث ، أو منتصف القرن الرابع حيث اندمجتا في مدرسة بغداد الجديدة » (٣) .

وقال أيضاً : « وكان اندماج تعاليم المدرستين في الجيل التالي من النحويين الذين أسسوا مدرسة بغداد » (٤) .

إن انتخاب بعض النحاة من المذهبين البصري والكوفي ، واندماج المدرستين فيما بعد ، لا يعني بالضرورة نشوء مدرسة جديدة هي المدرسة البغدادية ، لأنه لو وجد مثل هذه المدرسة لكان لها ما يميزها من معالم واضحة القسمات ، بيّنة الملامح ، من حيث أصولها ومنهجها ومصطلحاتها ، بل يعني « بقاء المذهبين البصري والكوفي في بغداد جنباً إلى جنب بقاءً لا أثر فيه للتناقض الشخصي أو التناحر ... فلقد كانت هناك كثرة من علماء بغداد أخذت من المذهب البصري أخذَ بحثٍ واقتناعٍ ، لا أخذ هوى وتعصب ، وكانت هناك قلة منهم أخذت بمذهب الكوفة وناصرته » (٥) .

وإذا عدنا إلى مصنف د. محمود حسني محمود عن (المدرسة البغدادية) الفيناه يجعل الأخفش الأوسط (ت ٢١٥ هـ) من مؤسسي هذه المدرسة ، فيقول: « الأخفش بغدادى ، يزرع هذه البذرة لما عاد سيبويه من بغداد ، وعلم الأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة خبره عزم على أن يثأر له ، فذهب متحمساً إلى بغداد » (٦) .

ففي زعم د. محمود أن الذي غرس الغرسة الأولى للمدرسة البغدادية هو الأخفش ، وهذا احتجاج لا يقوم ، لأن الأخفش يعد من أكابر أئمة النحو

البصري بعد سيبويه ، فهو أحد نحاة البصرة ، (٧) وكان يقول : « ما وضع سيبويه في كتابه شيئاً إلا وعرضه عليّ » ، وكان يرى أنه أعلم به مني ، وأنا اليوم أعلم به منه » (٨) .

ونعت المبرد (ت ٢٨٦ هـ) الأخفش قائلاً : إنه أحفظ من أخذ عن سيبويه (٩) .

لكن هذا لا يعني أن الأخفش لم يكن بينه وبين أصحابه البصريين خلاف ، فقد كان بينهم من الخلاف ما كان ، والتأمل في مظانّ النحو يشهد لذلك ، إذ نرى فيها عبارات من نحو : « ذهب البصريون إلاّ الأخفش » (١٠) .

وفي رأي د. ضيف أن الأخفش هو الذي فتح أبواب الخلاف على النحو البصري (١١) . غير أن هذا لا يعني أن الأخفش يعدّ من الذين أسسوا المدرسة البغدادية ، كما قيل ، لأن مخالفته لأقرانه البصريين أحياناً لا تعني بالضرورة أن الأخفش أسس مذهباً نحوياً جديداً .

وكذا جعل د. محمود بن كيسان (ت ٢٩٩ هـ) مع أعلام النحاة البغداديين (١٢) ، ومثل هذا فعله د. ضيف ، إذ عدّه من أول أئمة المدرسة البغدادية (١٣) .

وهذا يحمل على معاودة النظر في ترجمة ابن كيسان . فقد نقل السيوطي (ت ٩١١ هـ) عن الخطيب قوله عن ابن كيسان إنه يحفظ المذهب البصري والكوفي في النحو ، لأنه أخذ عن المبرد وثلعب ، وكان أبو بكر بن مجاهد يقول : إنه أنحى منهما (١٤) .

أما ياقوت فقال عنه : « لكنه إلى مذهب البصريين أميل » (١٥) .

وكان ابن الأنباري يقول : « خلط المذهبين فلم يضبط منهما شيئاً » (١٦) .

وقيل : « إنه كان متبحراً في مذهب البصريين » (١٧) .

أما خالد بن عبد الله الأزهرى (ت ٩٠٥ هـ) فقد نسبته إلى الكوفيين (١٨) .

وهذه الأقاويل مجتمعة تؤذن ببطلان ما قيل عن ابن كيسان أنه من أول أئمة المدرسة البغدادية ، فليس هناك ما يثبت ذلك ، فهو يحفظ المذهب البصري والكوفي ، وهذا لا يجعل الرجل في طليعة البغداديين ، لأن حفظه للمذهبين لا يعني أنه بغدادي المذهب ،

هذا ان تجاوزنا رأي مَنْ جعله أميل الى مذهب البصريين ، أو رأى من عزاه الى الكوفيين ، أو رأى من اتهمه بأنه خلط بين المذهبين فلم يضبط شيئاً منهما .

وإذا مضينا مع د. محمود ألفيناه يجعل عدداً من نحاة القرون : الرابع والخامس والسادس والسابع ينتمون إلى المدرسة البغدادية . فهو ينسب أبا بكر ابن السراج (ت ٣١٦ هـ) إلى تلك المدرسة (١٩) .

ولعل الذي جعل د. محمود يعد ابن السراج في البغداديين أن ابن السراج نشأ في بغداد ومات فيها ، لكن هذا لا يعني أنه بغدادي المذهب ، فهو بصري كما يقول محقق كتاب الأصول : « أو هكذا ارتضى لنفسه أن يكون من البصريين ، لأن الأسس التي يرجع إليها والمصطلحات والمسائل الخلافية التي يستعملها ليست بغدادية ، لأنه لا توجد مدرسة « بغدادية » بهذا المعنى .

إن ابن السراج يقول بآراء البصريين ، ويعد نفسه بصرياً ، ويعتمد الأسس البصرية ، ويستعمل مصطلحاتهم

فهو يعتمد الوجهة البصرية ، وهو كالنحاة البصريين يعتمد القبائل العربية الفصيحة ، ولا يقيس على القليل أو النادر

وفي كتاب الأصول الكثير من ذكر البصريين ، وأحياناً يسميهم بأصحابنا » (٢٠) .

فظاهر ما ذكره محقق كتاب الأصول لأبي بكر بن السراج يوحي بأن الرجل بصري ، وليس بغدادياً كما زعم د. محمود .

ويعارض ذلك أن الزبيدي (ت ٣٧٩ هـ) في طبقاته (٢١) وابن النديم (ت ٤٣٨ هـ) في الفهرست (٢٢) جعلوا ابن السراج من البصريين .

ومن نحاة القرن الرابع الذين عدّهم د. ضيف في البغداديين عبد الرحمن ابن إسحاق الزجاجي (ت ٣٣٧ هـ) (٢٣) ، وقد جاء كلامه عنه متبايناً ، فبعد أن حكم عليه بأنه ينتمي إلى المدرسة البغدادية يقول : إنه « كان يسلك نفسه في البصريين » (٢٤) . وقال عنه في موضع آخر : « ونحسّ في وضوح أنه يقف مع البصريين مناضلاً مدافعاً ، مما يؤكد نزعة بصرية قوية في مباحثه ، وكأنه كان

استهلالاً لانصراف البغداديين عن النزعة الكوفية إلى النزعة البصرية التي سادت بعده إلا قليلاً» (٢٥) .

وحكم د. ضيف على كتاب الجمل للزجاجي بقوله : « وكتاب الجمل أفرد له لقواعد النحو والصرف ، وحظي بشهرة مدوية لدقته ووضوح عبارته واستيعابه لدقائق النحو البصري التي يحتاجها الناشئة ٠٠٠ وهو فيه بعامة يتبع نظام النحو البصري ٠٠٠ » (٢٦) .

ولا أدري كيف عذب عن د. ضيف وبعد أن ساق هذه النصوص أن يحكم على الزجاجي بأن هواه مع البغداديين ، على حين أن هذه الأقاويل التي عول عليها تحمل على جعل الرجل في البصريين ، ولا ريب أن هذه الأقاويل تتضافر على تأكيد هذه الحقيقة .

وهذا لا يعني أن الزجاجي أحجم نهائياً عن الكوفيين ، فالناظر في مصنفاته يرى أنه استعار بعض مصطلحاتهم (٢٧) ، وأنه تابعهم في بعض آرائهم (٢٨) .

فالرجل بصري إذن ، وليس بغدادياً ، ولعل د. ضيف حكم عليه بذلك لأنه سلك مسلك البصريين ، وتابع الكوفيين في عدد من آرائهم ومصطلحاتهم ، وهذا في رأيي لا ينفي أن الرجل بصري المذهب ، لأن مخالفته لأصحابه البصريين أحياناً لا تعني خروجه عنهم ، وتحوّله إلى البغداديين ، بل هو واحد من أولئك النحاة الذين نظروا في المذهبين البصري والكوفي ، فمال إلى المذهب البصري ، وأخذ به أخذ بحث واقتناع ، لا أخذ هوى وتعصب ، وصنيعه هذا لا يَدْخُلُهُ في البغداديين .

ويعاضد هذا ما ساقه الأزهري (ت ٩٠٥ هـ) في كتابه (التصريح بمضمون التوضيح) فقال في قول رؤبة :

أَوْ تَخْلِفِي بِرَبِّكَ الْعَلِيَّ أَنْتِ أَبُو ذِيَالِكَ الصَّبِيِّ (٢٩)

« يروى بكسر (إن) وفتحها ، فالكسر على الجواب للقسم ، والبصريون يوجبونه ، واختاره الزجاجي (٣٠) ، والفتح عند الكسائي والبغداديين ، وأوجه أبو عبدالله الطُّوَال بتقدير (على) ٠٠٠ » (٣١) .

فلو كان الزجاجي بغدادياً لاستثناه الأزهري من البغداديين ، وربما كانت

عبارته عندئذ : والفتح عند الكسائي والبغداديين ، إلا الزجاجي منهم حيث
اختار الكسر .

وقد عدّ د. محمود حسني محموداً أباً علي الفارسي (ت ٣٦٦ هـ) بغدادياً،
فعقد له فصلاً كاملاً^(٢٢) ، وكذا فعلد. ضيف أيضاً ، إذ عدّ الفارسي وابن
جني (٣٩٢ هـ) في البغداديين ، فقال : « ولا يكفي أن ينسب ابن جني وأبو علي
الفارسي في البصريين ، لعدّهما حقاً منهم ، فانهما اتبعا في مصنفاتهما المذهب
البغدادى الانتخابي ، وإن كانت قد غلبت عليهما النزعة البصرية ، وهي
لا نخرجهما عن دوائر الاتجاه البغدادى القائم على الانتخاب من آراء البصريين
والكوفيين »^(٢٣) .

كذا قيل عن مذهب أبي علي وابن جني . وإن نظرة في كتبهما تكشف عن
بصرية واضحة القسّمات ، بيّنة الملامح لديهما ، وهذه براهين تجعل النفس
تطمئن لبصريتهما .

ففي قول الشاعر :

أَنْ تَقْرَأَنْ عَلَى أَسْمَاءَ وَيَعْنَمَا مِثِّي السَّلَامَ وَأَنْ لَا تَعْلِمَا أَحَدًا^(٢٤)

ذكر ابن جني ما نصه : « وسألت أبا علي عن قول الشاعر . . . البيت .
فقلت له : لم رفع (تقرأن) ؟ . فقال : أراد (أن) الثقيلة ، أي : أنكما
تقرأن ، هذا مذهب أصحابنا . وقرأت على محمد بن الحسن عن أحمد بن يحيى
في تفسير (أن تقرأن) قال : شبه (أن) ب (ما) ، فلم يعملها في صلتها ،
وهذا مذهب البغداديين . وفي هذا بُعد ، وذلك أن (أن) لا تقع إذا وُصلت
حالاً أبداً ، إنما هي للمضي أو الاستقبال ، نحو : سرتني أن قام زيد ، ويسرني
أن يقوم غداً ، ولا تقول : يسرني أن يقوم ، وهو في حال قيامٍ ، و (ما)
إذا وُصلت بالفعل فكانت مصدراً فهي للحال أبداً ، نحو قولك : ما تقوم حسنٌ ،
أي : قيامك الذي أنت عليه حسنٌ ، فيبعد تشبيه واحدة منهما بالأخرى ،
وكل واحدة منهما لا تقع موقع صاحبتها .

قال أبو علي : وأولى (أن) المخففة من الثقيلة الفعل بلا عوضٍ ضرورةً ،
وهذا على كل حال وإن كان فيه بعض الصنعة أسهل مما ارتكبه الكوفيون »^(٢٥) .

بين مما سلف أن مذهب أبي علي هو بصري ، فهو يشير إليه بقوله :
« وهذا مذهب أصحابنا » . ويؤكد هذا أن أبا علي كان أشدّ تفرداً بكتاب
سيبويه ، وأشدّ إكباتاً عليه ، وأبعد من كل ما عداه مما هو علم الكوفيين (٣٦) .
وأنه لما حدث حريق ببغداد فذهب به جميع علم البصريين قال أبو علي :
« وكنت قد كتبت ذلك كله بخطي وقرأته على أصحابنا » (٣٧) .

ومن ههنا كان أبو علي يقول : « قياس أصحابنا كذا ، وقياس البغداديين
كذا » (٣٨) .

مما يعني أن نسبة أبي علي إلى البغداديين يشوبها الضعف ، لأنه لم
ينتصر لقياسهم كما هو بين ، ولأنه صرح عن بصريته في مظانه كما سلف .
وفي عودة إلى كلام أبي علي على البيت الذي ساقه ابن جني يلاحظ أن
الرجل لم يتابع البغداديين فيما ذهبوا إليه ، وأنه لو كان بغدادياً لاستثناه ابن
جني منهم ، وأنه عني بالبغداديين متأخري النحاة من الكوفيين ، لأنه نقل
عن أحمد بن يحيى ثعلب الذي يعدّ من متأخري نحاة الكوفة كما هو معروف ،
ويدل على ذلك أيضاً أنه سمى الكوفيين في أول النص بالبغداديين ، على حين أنه
أطلق عليهم لفظ الكوفيين في آخره ، « وهذا أسهل مما ارتكبه الكوفيون » .
ومما يؤكد أن أبا علي عني بالبغداديين متأخري النحاة من الكوفيين ما ذكره
البغدادى (ت ١٠٩٣ هـ) في قول الشاعر :

فلا تلحنني فيها فانّ بعبها أخاك مصاب القلب جمّ بلابله (٣٩)

فقال : « وأورده - يعني أبا علي - أيضاً في موضعين من التذكرة القصرية .
قال في الأول : مسألة إن قال قائل : لم لا يكون المحذوف في التقدير مؤخراً ،
كأنه قال : إن في الدار زيداً ، فلا يسقط بذلك حكم ما يعلّق بالظرف ؟ قيل :
يقبح هذا الفصل كما : كانت زيدا الحُمى تأخذ ، فان قيل : فقد قال : فان
بعبها أخاك مصاب القلب ؟ قد قيل : روى البغداديون : هذا مصاب القلب ،
فذا يدل على استكراههم الرفع لما فيه من الفصل ، فعدلوا عنه إلى النصب ،
ويجوز أن يقول : إن الظرف قد فصل به في أماكن ، فيجوز أن يكون هذا مثلاً .

وقال في الموضوع الثاني : مسألة : ما كان فيها أحد خير منك ، (فيها) متعلقة بـ (كان) إذا نصبت (خيراً منك) ومتعلقة بمحذوف إذا كان مستقراً ، ويجوز أن تنصبها بـ (خيراً منك) وإن تقدم عليه لشبهه بالفعل ، وليس الفصل بـ (فيها) إذا علقتها بـ (خير منك) يقبح ، لأن أبا الحسن قد أنشد في (المسائل الصغيرة) .

..... فانَّ بجبَّها أخاك مصاب القلب

ورواه الكوفيون : مصاب القلب ، وأظنهم هربوا من الفصل ، فنصبوا مخافة أن يجرى مجرى : كانت زيدا الحمى تأخذ ، وأتى أبو الحسن بمسائل هناك يفصل فيها بالظرف المتعلق بالخبر» (٤٠) .

فقد تحدث أبو علي عن هذا البيت في موضعين من كتابه (التذكرة القصرية) ذكر في الموضوع الأول أن البغداديين رَووا البيت بنصب (مصاب) ، وذكر في الموضوع الثاني أن الكوفيين رَووا البيت بنصب (مصاب) أيضاً . ويلاحظ أنه سمى الكوفيين بالبغداديين في الموضوع الأول ، على حين أنه سماهم بالكوفيين في الموضوع الثاني ، مما يدل على أنه عني بالبغداديين الكوفيين .

وكذا فعل أبو الفتح عثمان بن جني أيضاً فقال : « فأما قول من قال في قول تأبط شراً : (٤١) »

كانما حثثوا حصاً قوامه أو أم خشف بني شث وطباق

إنه أراد حثثوا ، فأبدل من التاء الوسطى حاء ، فمردود عندنا ، وإنما ذهب إلى هذا البغداديون وأبو بكر معهم أيضاً .

وسألت أبا علي عن فساده فقال : العلة في فساده أن أصل القلب في الحروف إنما هو فيما تقارب منها ، وذلك الدال والطاء والتاء ، والدال والظاء والثاء ، والهاء والهمزة ، والميم والنون ، وغير ذلك مما تدانت مخارجه .

فأما الحاء فبعيدة من الثاء ، وبينهما تفاوت يمنع من قلب إحداهما إلى أختها . قال : وإنما (حثَّحَ) أصل رباعي ، و (حثَّ) أصل ثلاثي ، وليس واحداً منهما من لفظ صاحبه ، إلا أن (حثَّ) من مضاعف الأربعة ، و (حثَّ) من مضاعف الثلاثة ، فلما تضارعا بالتضعيف الذي فيهما اشتبه

على بعض الناس أمرهما ، وهذا هو حقيقة مذهبنا ، ألا ترى أن أبا العباس قال في قول عنترة (٤٢) :

جَادَتْ عَلَيْهِ كُلُّ بَكْرٍ ثَرَّةٍ فتركَنْ كُلُّ قَرَاةٍ كَالدَّرَمِ

ليس (ثرة) عند النحويين من لفظ : ثرارة ، وإن كانت من معناها ، هذا هو الصواب ، وهو قول كافة أصحابنا ، على أن أبا بكر محمد بن السري قد كان تابع الكوفيين ، وقال بقولهم « (٤٢) » .

فابن جني يرد مذهب البغداديين ، ويعلل فسادهم ، ويبين حقيقة مذهب البصريين من خلال كلام أبي العباس المبرد ، ثم يشير إلى أن هذا هو قول البصريين ، ما خلا أبا بكر محمد بن السري بن السراج الذي تابع الكوفيين ، وقال بقولهم .

وبين من النص الذي ساقه ابن جني أنه سمى الكوفيين بالبغداديين في الموضع الأول منه ، ثم سماهم بالكوفيين في الموضع الثاني ، ويبدو أيضاً أن أبا علي يصرح ببصريته بقوله : « وهذا حقيقة مذهبنا » . وبقوله : « وهذا هو الصواب ، وهو قول كافة أصحابنا » .

وكذا سمى ابن جني أيضاً الكوفيين بالبغداديين ، فقد ذكر في الخصائص قول البغداديين : إن الاسم يرتفع بما يعود عليه من ذكره ، نحو : زيد "مرت به" ، وأخوك أكرمته ، وذكر أن ارتفاعه عندهم إنما هو لأن عائداً عاد عليه ، فارتفع بذلك العائد ، ثم ذكر أن إسقاط هذا الدليل أن يقال لهم : فنحن نقول : زيد "هل ضربته ، وأخوك متى كلمته ، ومعلوم أن ما بعد حرف الاستفهام لا يعمل فيما قبله" « (٤٤) » .

وفي موضع آخر من الخصائص قال : « ألا ترى أنك لو سألت رجلاً عن علة رفع (زيد) من نحو قولنا : زيد قام أخوه ، فقال لك : ارتفع بالابتداء ، لقلت : هذا قول البصريين . ولو قال : ارتفع بما يعود عليه من ذكره لقلت : هذا قول الكوفيين » « (٤٥) » .

فقد سمي ابن جني في الموضع الأول الكوفيين بالبغداديين ، وفي الموضع الثاني سمّاهم بالكوفيين .

ومما يؤكد أن المقصود بالبغداديين متأخرو النحاة من الكوفيين أن بعض العلماء سمّوا البغداديين بالكوفيين . قال ابن الأنباري : « قال أبو العباس محمد بن يزيد المبرد : ما رأيت للبغداديين كتاباً خيراً من كتاب يعقوب بن السكيت في المنطق » (٤٦) . وقال أيضاً : « وروى أبو بكر بن دريد قال : رأيت رجلاً في الوراقين بالبصرة يفضل كتاب إصلاح المنطق لابن السكيت ، ويقدم الكوفيين » (٤٧) .

فقد جعل في النص الأول ابن السكيت بغدادياً ، على حين أنه جعله في النص الثاني كوفياً ، مما يدل على أن لفظ البغداديين كان يطلق على الكوفيين . ويدل على ذلك أيضاً أن أبا منصور الأزهري (ت ٣٧٠ هـ) سمّى أحمد ابن يحيى المعروف بثعلب بالبغدادي ، فقال : « وقال ابن الأعرابي فيما روى عنه أحمد بن يحيى البغدادي » (٤٨) .

ومن المعروف أن ثعلباً هو من متأخري نحاة الكوفيين ، فهو : « ثالث ثلاثة قامت على أعمالهم مدرسة الكوفة النحوية » (٤٩) .

ومن الجدير ذكره أيضاً أن بعض من ترجموا للكسائي الكوفي سمّوه بالبغدادي ، فقد تكلم صاحب إنباه الرواة على رحلة الأخفش إلى بغداد ، فساق ما نصّه : « فلمّا دخل إلى شاطئ البصرة وجّه إليّ فجئته فعرفني خبره مع البغدادي » (٥٠) .

وأكبر الظن أن تسمية الكسائي الذي يعدّ من مؤسسي المدرسة الكوفية بالبغدادي يقصد به نسبة الكسائي إلى المكان الذي عاش فيه وهو بغداد ، ولا يعني بالطبع أن الكسائي ينتمي إلى المذهب البغدادي .

ومن الذين جعلهم د. محمود من البغداديين الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) ، فعقد له فصلاً كاملاً في مصنّفه عن المدرسة البغدادية (٥١) ، وكذا فعل د. ضيف أيضاً (٥٢) .

وان نظرة في كتب الزمخشري تكشف أن الرجل لم يكن بغدادياً ، بل كان في جل آرائه بصرياً ، ويدل على هذا ما قاله في (المفصل) : « ومن اضمار الفاعل قولك : ضربني وضربت زيداً ، تضرر في الأول اسم مَنْ (ضربك) و (ضربته) اضماراً على شريطة التفسير ، لأنك لما حاولت في هذا الكلام أن تجعل (زيداً) فاعلاً ومفعولاً فوجهت الفعلين إليه استغنيت بذكره مرة ، ولما لم يكن بد من اعمال أحدهما فيه عملت الذي أوليته إياه ... »

وكذلك إذا قلت : ضربت ' وضربني زيد' ، رفعته لايلائك إيّاه الرفع ، وحذفت مفعول الأول استغناء عنه وعلى هذا تعمل الأقرب أبداً ، فتقول : ضربت ' وضربني قومك .

قال سيبويه : ولو لم تحمل الكلام على الآخر لقلت : ضربت وضربوني قومك ، وهو الوجه المختار الذي ورد به التنزيل ، قال تعالى : (آتُونِي أَفْرَغْ عَلَيْهِ قَطْرًا) (٥٣) ، و (هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهٗ) (٥٤) ، وإليه ذهب أصحابنا البصريون « (٥٥) .

يلاحظ من النص السابق أن الزمخشري يصرّح بأنه بصري فيقول : « وإليه ذهب أصحابنا البصريون » .

وفي موضع آخر من (المفصل) يكشف عن صلته القوية بالبصريين . فيقول : « وقضية الاضافة المعنوية أن يجرّد لها المضاف من التعريف ، وما تقبله الكوفيون من قولهم : الثلاثة الأثواب ، والخمسة الدراهم ، فبمعزل عند أصحابنا عن القياس واستعمال الفصحاء « (٥٦) .

وفي موضع ثالث من (المفصل) يقف الزمخشري منافعاً مدافعاً عن كتاب سيبويه فيقول : « وما يقع في بعض نسخ الكتاب من قوله :

فَرَجَجَتْهَا بِمَزْجَةٍ زَجَّ الْقَلْوَصِ أَبِي مَزَادَةَ (٥٧)

فسيبويه برىء من عهده « (٥٨) .

وما أظنني بعد غالباً إذا ما قلت : إنّ ماسقته من أقوال يقطع بأنّ الزمخشري لم يكن بغدادياً ، بل كان بصرياً ، يدافع عن مذهب أصحابه وعن كتاب سيبويه كما رأينا .

وما سلف لا يعني أن الرجل لم تكن له آراء خاصة ، أو أنه لم يكن يختار أحياناً رأي الكوفيين في بعض المسائل^(٥٩) ، لكنّ هذا لا يعني أن الزمخشري صار في عداد البغداديين .

وممن صنّفوا في البغداديين ابن الشجري (ت ٥٤٢ هـ) (٦٠) . ومذهب الرجل خلاف ذلك ، فهو أميل إلى البصريين ، وهذا بيّن في قوله على بيت الخنساء :

كَانَ لَمْ يَكُونُوا حَمَى يَتَّقِي إِذِ النَّاسُ إِذْ ذَاكَ مَنْ عَزَّ بَزًّا (٦١)

إن : (مَنْ) في البيت بمعنى (الذي) ، وموضعها مع (عزَّ) رفع بالابتداء ، و (بَزًّا) خبرها . . . ولا يجوز أن تكون (من) شرطية ، لأن الشرط وجوابه لا يعمل واحد منهما فيما قبله باجماع البصريين ، كما لا يتقدم على الاستفهام ما يكون في حيّزه .

وأجاز قوم من البغداديين أن يعمل جواب الشرط فيما تقدّم عليه لفارقتة الاستفهام بكونه خبراً ، فعلى هؤلاء يحتمل (مَنْ) أن تكون شرطاً ، فأما (ذاك) فموضعه رفع بالابتداء ، وخبره محذوف ، أي : ذاك كائن ، أو موجود ، ولا يجوز أن يكون موضع (ذاك) على انفراده خفضاً ، لأن (إذ) لا تضاف إلا إلى الجملة التي هي (ذاك) وخبره جر^(٦٢) .

فابن الشجري ينقل إجماع البصريين ، ويبين ما أجازهم قوم من البغداديين ، ويلاحظ أنه وافق البصريين فيما ذهبوا إليه ، وعليه فهو أميل إلى رأيهم ، وهو على نفور من رأي البغداديين ، ولو كان ابن الشجري بغدادياً لقال : وأجاز بعض أصحابنا البغداديين ، أو ما في معناه ، وهو مما ينفي عنه أنه كان بغدادياً .

ويؤكد هذا أيضاً قوله : « و (الزعم) يقتضي مفعولين ، كما يقتضيهما (الحسبان) ونحوه ، ومذهب سيبويه أن (أن) تسد في هذا الباب مسد المفعولين ، لأنها تتضمن جملة أصلها مبتدأ وخبر ، كما أن المفعولين في هذا الباب أصلهما الابتداء وخبره .

ومذهب أبي الحسن الأخفش أن (أن) بصلتها سدت مسد مفعول واحد ، والمفعول الآخر مقدّر ، تقديره : (كائناً) أو (واقعاً) .

والذي ذهب إليه سيبويه أولى ، لأن المفعول المقدر عند الأخفش لم يظهر في شيء من كلام العرب» (٦٣) .

فابن الشجري يرجح مذهب سيبويه على مذهب الأخفش الذي خالف فيه البصريين ، مما يعني أنه كان يميل الى مذهب أهل البصرة .

وقد يكون من المفيد أن أثبت ههنا ما حكم به ابن الشجري على مذهب الكوفيين وهو قوله : « ولنحاة الكوفيين في أكثر كلامهم تهاويل فارغة من الحقيقة » (٦٤)، فإن في قوله هذا عوناً على إثبات أن الرجل لم يكن بغدادياً ، بل كان الى مذهب البصريين أميل .

وأسرف د. محمود حين عد ابن يعيش (٦٤٣ هـ) في البغداديين ، وحجته في ذلك أن ابن يعيش شرح كتاب (التصريف الملوكي) لابن جني (٦٥) ، وكذا د. ضيف أيضاً (٦٦) .

ويدفع ذلك أن ابن يعيش كان حفيًا بكلام البصريين ، مقبلاً عليه ، مراعيًا له ، وهذا بيّن في حديثه عن المحذوف ، أهو اسم أم فعل في نحو : زيد في الدار ، فقال : « واعلم أن أصحابنا قد اختلفوا في ذلك المحذوف ، هل هو اسم أو فعل ، فذهب الأكثر الى أنه فعل ، وأنه من حيز الجملة ، وتقديره : زيد استقر في الدار » (٦٧) .

فعبارته : « واعلم أن أصحابنا » تظهر أنه كان بصرياً ، ويؤيد هذا أيضاً ما ساقه في قول الشاعر :

أن تقرأن على أسماء ويحكمنا مني السلام وأن لا تعلمنا أحداً (٦٨)

فقال في تفسير (أن تقرأن) : «وعلة رفعه أنه شبه (أن) ب (ما) فلم يعملها في صلتها ... وهو رأي السيرافي ... وقوله : أن تحملنا حاجة (٦٩) ، في موضع نصب بفعل مضمّر دلّ عليه ما تضمنه البيت الأول من النداء والدعاء ، والمعنى : أسألكما أن تحملنا ، وهو رأي البغداديين ، ولا يراه البصريون ، وصحة محمل البيت عندهم على أنها المخففة من الثقيلة ، أي : أنكما تقرأن ، و (أن) وما بعدها في موضع البدل من قوله : (حاجة) ، لأن حاجته قراءة السلام عليها ، وقد استبعدوا تشبيهه (أن) ب (ما) ، لأن (ما) مصدر معناه الحال ،

و (أن) وما بعدها مصدر إما ماض وإما مستقل على حسب الفعل الواقع بعدها ،
فلذلك لا يصح حمل إحداهما على الأخرى فاعرفه » (٧٠) •

فابن يعيش يذكر كلام البصريين وكلام البغداديين على البيت ، وقوله :
« وهو رأي البغداديين ، ولا يراه البصريون » يظهر أنه لم يكن بغدادياً ، إذ كيف
يكون كذلك ويقول : « وهو رأي البغداديين » ، فلو كان منهم لقال : وهو رأي
أصحابنا البغداديين ، أو ما أشبه ذلك •

ويبدو من الكلام الذي ساقه ابن يعيش أنه عني بالبغداديين الكوفيين على
نحو ما سلف •

وتكلف د. ضيف حين جعل عثمان بن عمر بن الحاجب (ت ٦٤٦ هـ) امتداداً
للـبغداديين (٧١) •

على حين أن ابن الحاجب كان ينتصر لمذهب البصريين ، وهذا بيّن من كلام
د. إبراهيم عبدالله على مذهب الرجل ، فقال : « إنه كان يرجّح مذهب البصريين
في أكثر المسائل ، ويستدل له ، ويرد على الكوفيين ، ويرميهم بأنهم أخذوا عن
غير الفصحاء ، وجدناه يكتفي بعرض آرائهم أحياناً دون مناقشة ، إلا أنه
وافقهم في بضع مسائل ، ودافع عنهم ، وقد يقف موقفاً معتدلاً ، فلا يميل إلى
هؤلاء ، ولا إلى هؤلاء ، ولم نره يشير إلى البصريين بعبارة : (أصحابنا) ، وإنما
استخدم عبارة : (أكثر الناس) ، وعنى بها البصريين ، وسبق أن مر بنا أن
أصوله النحوية لم تخرج عن دائرة الأصول النحوية للمدرسة البصرية ، كما
رأينا أن المصطلحات النحوية التي استخدمها كان معظمها من مصطلحات
البصريين ، ولم يستعمل من مصطلحات الكوفيين إلا قليلاً ، وكل هذا يؤكد
غلبة المذهب البصري عليه ، فهو أخذ من البصريين والكوفيين وانتقدهم ، إلا أنه
كان يميل إلى آراء البصريين أكثر من ميله إلى آراء الكوفيين » (٧٢) •

وعليه فإن د. عبد الله أنكر أن يكون ابن الحاجب بغدادياً •

ومما يستوقف النظر أن د. محمود نسب الرضي الأسترباذي (نحو ٦٨٦ هـ)
إلى البغداديين (٧٣) وكذا فعل د. ضيف أيضاً ، فقال : « وانتهاه نهج البغداديين
واضح منذ الصفحات الأولى في شرحه على الكافية ، إذ نراه يقف تارة مع

الكوفيين ، وتارة مع البصريين ، وكثيراً ما يختار ما انفرد به بعض أعلامهما ،
وقد يختار بعض آراء البغداديين» (٧٤) .

وما ذكر عن الرضي فيه غلوٍ وشطط ، لأن الرضي في رأي الأستاذ العلامة د. عبد الرحمن حاج صالح يعد امتداداً للخليل وسيبويه : «فسيبويه والخليل بن أحمد قد انفردا مع أكثر النحويين الأقدمين بنظرية اندثرت بعدهم ، صارت بعد غزو المنطق اليوناني خاصة لا يتفطن إليها إلا الأفذاذ من النحاة مثل السهيلي والرضي الأسترايازي» (٧٥) .

إن ما ذكره د. صالح يؤذن ببطلان ما قيل عن الرضي إنه أحد البغداديين ، لأن جهده في النحو هو مما لا يدرك شأوه ، فهو واحد من النحاة الأفذاذ الذين تنبها على نظرية الخليل وسيبويه التي كادت تندثر في القرون المتأخرة ، لولا السهيلي والرضي ، إذ عمل كل منهما بمقتضاها ، ومن ههنا فانهما يعدان امتداداً للخليل وسيبويه .

ولا ريب أن ما انتهينا إليه من أدلة على هدى ما اجتمع لدينا من قرائن تحمل على الاعتقاد بأنه لا وجود للمدرسة البغدادية في النحو العربي ، لأن الأعلام الذين نسبوا إليها هم في جلهم أميل الى نحو البصرة ، بله إن بعضهم كان شديد المنافحة عن مذهب البصريين كما سلف .

وبيّن أيضاً أن مسلك العلماء الذين ذكروا البغداديين في مظانهم يشعر بأنهم لم يقصدوا أن للبغداديين مدرسة تنافس مدرسة البصرة ، بل قصدوا بالبغداديين متأخري النحاة من الكوفيين تارة ، أو الكوفيين أنفسهم تارة أخرى على النحو الذي بيّناه ، وإن التأمل في الآراء التي جاء بها البغداديون يوحي أن هذه الآراء هي آراء الكوفيين كما ذكرنا . ومن ههنا فانه يمكن القول إن نحونا العربي لم يعرف مدرسة تسمى بالمدرسة البغدادية ، ويعارض هذا ما ذكره أستاذنا الدكتور مازن المبارك فقال : « على أننا إذا قلنا إن بغداد اتسعت للمذهبيين النحويين البصري والكوفي ، وإن من علماء النحو فيها من كان بصرياً ، ومنهم من كان كوفياً ، ومنهم من لم يكن بالبصري المحض ، فلسنا

نعني أن هذه الطائفة الثالثة تشكل مدرسة بغدادية جديدة ، ذات منهج نحوي مستقل ، وإنما نعني أن علماءها بسطوا المذهبين ، واختاروا منهما . وإذا كان لبعض هؤلاء العلماء البغداديين أقوال تفردوا بها من دون المذهبين فإن ذلك لا يعني قيام مذهب جديد ، ولا يعني نشوء مدرسة بغدادية ، ولئن صحت هذه التسمية في عصر البصرة والكوفة إنما لم تعد تصح في هذا العصر بعد أن طوت مدرستا البصرة والكوفة أعلامهما ، ولم يعد الأمر في بغداد أمر منهج قياسي أو منهج سماعي يحمل لواء كل منهما طائفة من النحاة ، ويتعصب بعضهم لبعض بحق أو بغير حق ؟ وإنما حلّ محلّ المدارس والمناهج شيوخ تختلف مناهجهم وأساليبهم باختلاف عقلياتهم وثقافتهم» (٧٦) .

وبناء على ما سلف فأننا ننكر وجود هذه المدرسة ، لأنه لو وجدت لكان بينها وبين المدرسة البصرية من المنافرة والخلاف ما كان ، والدارس للنحو العربي لا يرى شيئاً من هذا القبيل ، ثم انه لو وجدت مثل هذه المدرسة لكان لها مصطلحات خاصة بها ، كما هو عليه الأمر في مصطلحات البصريين والكوفيين .



□ الحواشي :

٧ - وفیات الاعیان وانباء الزمان ، لابن خلكان ، تحقيق د. احسان عباس ، دار صادر ، بيروت - ٣٨٠/٢ .

٨ - المصدر السابق ، ٣٨١/٢ .

٩ - بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، للسيوطي . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، صيدا ، لبنان . ٥٩٠/١ .

١٠ - الأشباه والنظائر في النحو ، للسيوطي ، تحقيق غازي طليمات ورفاقه ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ٣٦٤/٢ .

١١ - المدارس النحوية ، د. شوقي ضيف ، ص ٩٥ .

١٢ - المدرسة البغدادية ، د. محمود حسني محمود ، ص ١٨١ .

١٣ - المدارس النحوية ، د. شوقي ضيف ، ص ٢٤٨ .

١٤ - بغية الوعاة للسيوطي ، ١٨/١ .

١٥ - المصدر السابق ، ١٩/١ .

١٦ - المصدر السابق ، ١٩/١ .

١ - المدارس النحوية ، د. شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر ص ٢٤٥ .

٢ - مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة ، د. مهدي الخزومي ، دار الرائد العربي ، بيروت-لبنان - ط ٣ - ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م - ص ٧٠ .

٣ - الرمانى النحوي في ضوء شرحه لكتاب سيبويه ، د. مازن المبارك ، مطبعة جامعة دمشق ، ط ١ ، ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣ م - ص ٣٥ .

٤ - أبو علي الفارسي ، حياته ومكانته بين أئمة العربية ، د. عبدالفتاح شلبي ، مطبعة نهضة مصر ، القاهرة - ١٩٥٧ م - ص ٤٤٤ .

٥ - الرمانى النحوي في ضوء شرحه لكتاب سيبويه ، د. مازن المبارك - ص ٣١ .

٦ - المدرسة البغدادية في تاريخ النحو العربي ، د. محمود حسني محمود ، دار عتار ، الأردن ، ص ٧٥ .

٣٦- الامتاع والمزانسة ، لأبي حيَّان التوحيدي ، ضبط
وتصحیح أحمد أمين وأحمد الزين ، دار مكتبة الحياة ،
بيروت ، ١٣١/١ .

٣٧- معجم الأدباء ، لياقوت الحموي ، ٢٥٦/٧ .

٣٨- أبو علي الفارسي ، حياته ومكانته بين أئمة العربية ،
د. عبدالفتاح شلبي ، ص ١٠٦ .

٣٩- من أبيات سيبويه الخمسين التي لم يعرف لها قائل
انظر: سيبويه ١٣٣/٢ ، المقرَّب لابن عصفور ١٠٨/١ ،
مغني اللبيب ٩٠٩ ، شرح أبيات المغني للبغدادي
١٠٥/٨ .

٤٠- شرح أبيات المغني للبغدادي ١٠٦/٨ .

٤١- شرح المفضليات، للتبريزي، تحقيق علي محمد البجاوي،
دار نهضة مصر ، ص ٢١ .

٤٢- ديوان عنترة ، تحقيق محمد سعيد مولوي ، المكتب
الاسلامي ، دمشق ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م ، ص ١٩٦ .

٤٣- سر صناعة الاعراب لابن جني ، ١٨١-١٨٠/١ .

٤٤- الخصائص لابن جني ، ١٩٩/١ .

٤٥- المصدر السابق ، ١٨/١ .

٤٦- نزهة الالباء في طبقات الأدباء ، لابن الأنباري ، تحقيق
محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر ، ص ١٧٩ .

٤٧- المصدر السابق ، ص ١٩٩ .

٤٨- تهذيب اللغة، لأبي منصور الأزهري، تحقيق عبدالسلام
هارون ، المؤسسة المصرية العامة ، ٥٨/١ .

٤٩- مدرسة الكوفة ، د. مهدي المغزومي ، ص ١٤٤ .

٥٠- انبهاء الرواة على انبهاء النحاة ، للقفطي ، تحقيق
محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الكتب المصرية ،
١٩٧٣ م ، ٣٧/٢ .

٥١- المدرسة البغدادية، د. محمود حسني محمود ، ص ٤٠٣ .

٥٢- المدارس النحوية ، د. شوقي ضيف ، ص ٢٨٣ .

٥٣- الكهف ، ٩٦/١٨ .

٥٤- الحاقة ، ١٩/٦٩ .

١٧- معجم الأدباء ، لياقوت الحموي ، دار احياء التراث
العربي ، بيروت ، ١٢٠/٥ .

١٨- التصريح بمضمون التوضيح ، لخالد الأزهري ، دار
الفكر ، بيروت ، ١٨٩/١ .

١٩- المدرسة البغدادية ، د. محمود حسني محمود ، ص ٢٠٨ .

٢٠- الأصول في النحو ، لابن السراج ، تحقيق د. عبدالحسن
القتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٥ هـ -
١٩٨٥ م ، مقدمة المحقق ٢١-٢٠ .

٢١- طبقات النحويين واللفويين ، للزبيدي ، تحقيق محمد
أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف بمصر . ص ١١٢ .

٢٢- الفهرست ، لابن النديم ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة ،
ص ٩٨ .

٢٣- المدارس النحوية ، د. شوقي ضيف ، ص ٢٥٢ .

٢٤- المصدر السابق ، ص ٢٥٥ .

٢٥- المصدر السابق ، ص ٢٥٤ .

٢٦- المصدر السابق ، ص ٢٥٤ .

٢٧- المصدر السابق ، ص ٢٥٤ .

٢٨- المصدر السابق ، ص ٢٥٤ .

٢٩- ديوان رؤية (مجموع أشعار العرب) ، تصحيح وترتيب
وليم بن الورد البروسي ، مكتبة المثنى ، بغداد ،
ص ١٨٨ .

٣٠- الجمل في النحو ، للزجاجي ، تحقيق د. علي توفيق
الحمد ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، دار الأمل ،
أريد ، عمان ، ط ١ ، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م ، ص ٥٨ .

٣١- التصريح بمضمون التوضيح للأزهري ، ٢١٩/١ .

٣٢- المدرسة البغدادية ، د. محمود حسني محمود ، ص ٢٦٠ .

٣٣- المدارس النحوية ، د. شوقي ضيف ، ص ٢٤٦ .

٣٤- لم يعرف قائله . انظر : الخصائص لابن جني ٣٩٠/١ ،
ضرائر الشعر لابن عصفور ١٦٣ ، مغني اللبيب لابن
هشام ٤٦ ، شرح أبيات المغني للبغدادي ١٣٥/١ .

٣٥- سر صناعة الاعراب ، لابن جني ، تحقيق د. حسن
هنداوي ، دار القلم بدمشق ، ط ١ ، ١٤٠٥ هـ -
١٩٨٥ م ، ٥٤٩/٢ .

أن تحملا حاجة لي خفّ محلها
وتصنعا نعمة عندي بها ويدا
وأول الأبيات قوله :
يا صاحبيّ فدت نفسي نفوسكما
وحيثما كنتما لاقيتما رشدا

- ٧٠- شرح المفصل لابن يعيش ، ١٤٣/٨-١٤٤ .
- ٧١- المدارس النحوية ، د. شوقي ضيف ، ص ٣٤٣ .
- ٧٢- الايضاح في شرح المفصل ، لابن العاجب ، (دراسة وتحقيق) د. ابراهيم عبدالله ، (قسم الدراسة - ص ١٧٧-١٧٨) ، رسالة جامعية لنيل درجة الدكتوراه ، قسم اللغة العربية ، جامعة دمشق .
- ٧٣- المدرسة البقداية ، د. محمود حسني محمود ، ص ٤٠١ .
- ٧٤- المدارس النحوية ، د. شوقي ضيف ، ص ٢٨٢ .
- ٧٥- الجملة في كتاب سيبويه ، د. عبدالرحمن حاج صالح ، مقالة في كتاب صدر عن ندوة النحو والصرف ، جامعة دمشق ، من ٢٧-٣٠/٨/١٩٩٤ م ، برعاية المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، ص ٢٠٧ .
- ٧٦- الرمانى النحوي في ضوء شرحه لكتاب سيبويه ، ص ٣٤ .

- ٥٥- المفصل في علم العربية ، للزمخشري ، دار الجيل ، بيروت ، ص ٢٠ .
- ٥٦- المصدر السابق ، ص ٨٣ .
- ٥٧- لم يعرف قائله ، انظر: المصدر السابق ، ص ١٠٢ .
- ٥٨- المصدر السابق ، ص ١٠١-١٠٢ .
- ٥٩- المدارس النحوية ، د. شوقي ضيف ، ص ٢٨٥ .
- ٦٠- المصدر السابق ، ص ٢٧٧ .
- ٦١- أنيس الجلساء في ديوان الخنساء ، مطبعة اليسوعيين ، بيروت ١٨٨٨ م ، ص ٤٧ .
- ٦٢- الأمالي الشجرية ، لابن الشجري ، دار المعرفة، بيروت، لبنان ، ٢٤٦/١ .
- ٦٣- المصدر السابق ، ٤٣/١ .
- ٦٤- المصدر السابق ، ٣٩/١ .
- ٦٥- المدرسة البقداية ، د. محمود حسني محمود ، ص ٤٠٠ .
- ٦٦- المدارس النحوية ، د. شوقي ضيف ، ص ٢٨٠ .
- ٦٧- شرح المفصل لابن يعيش ، عالم الكتب ، بيروت ، مكتبة المتنبي ، القاهرة ، ٩٠/١ .
- ٦٨- سلف تغريغ البيت .
- ٦٩- في البيت الذي قبله وهو :

